عباء المسؤولية

لما تلقى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه خبر توليته الخلافة، انصدع قلبه من البكاء، وهو في الصف الأول، فأقامه العلماء على المنبر، وهو يرتجف، ويرتعد، وأوقفوه أمام الناس، فأتى ليتحدث، فما استطاع أن يتكلم من البكاء، قال لهم: بيعتكم بأعناقكم، لا أريد خلافتكم، فبكى الناس، وقالوا: لا نريد إلا أنت، فاندفع يتحدث، فذكر الموت، وذكر لقاء الله، وذكر مصارع الغابرين، حتى بكى من في المسجد.

يقول رجاء بن حيوة: والله لقد كنت أنظر إلى جدران مسجد بني أمية، ونحن نبكي، هل تبكي معنا؟! ثم نزل، فقرَّبوا له المراكب والموكب، كما كان يُفعَل بسلفه، فقال: لا، إنما أنا رجل من المسلمين، غير أني أكثر المسلمين حِملًا وعبئًا ومسؤولية أمام الله، قرِّبوا لي بغلتي فحسب، فركب بغلته، وانطلق إلى البيت، فنزل من قصره، وتصدَّق بأثاثه ومتاعه على فقراء المسلمين.

نزل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في غرفة في دمشق أمام الناس؛ ليكون قريبًا من المساكين والفقراء والأرامل، ثم استدعى زوجته فاطمة بنت الخلفاء، وأخت الخلفاء، وزوجة الخليفة، فقال لها: يا فاطمة، إني قد وليت أمر أمة محمد ﷺ

(وتعلمون أن الخريطة التي كان يحكمها عمر، تمتد من السند شرقًا، إلى الرباط غربًا، ومن تركستان شمالًا، إلى جنوب إفريقيا جنوبًا)، فإن كنت تريدين الله والدار الآخرة، فسلِّمي حُليّك وذهبك إلى بيت المال، وإن كنت تريدين الدنيا، فتعالي أمتعك متاعًا حسنًا، واذهبي إلى بيت أبيك، قالت: لا، والله، الحياة حياتُك، والموت موتُك، وسلّمت متاعها وحليّها وذهبها، فرفَعه إلى بيت مال المسلمين.

ونام القيلولة في اليوم الأول، فأتاه ابنه الصالح عبدالملك ابن عمر بن عبدالعزيز، فقال: يا أبتاه، أتنام، وقد وليت أمر أمة محمد ﷺ، فيهم الفقير والجائع والمسكين والأرملة، كلهم يسألونك يوم القيامة، فبكى عمر رضي الله عنه، واستيقظ، وقد توفي ابنه هذا قبل أن يكمل العشرين.

عاش عمر رضي الله عنه، عيشة الفقراء، كان يأتدم خبز الشعير في الزيت، وربما أفطر في الصباح بحفنة من الزبيب، ويقول لأطفاله: هذا خير من نار جهنم.

وقد ذهب إلى بيت المال يزوره، فشمّ رائحة طيب، فسدّ أنفه، قالوا: ما لك؟ قال: أخشى أن يسألني الله عز وجل يوم القيامة: لِمَ شممت طيب المسلمين في بيت المال؟

دخل عليه أضياف ليلًا، فانطفأ السراج في غرفته، فقام يصلحه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، اجلس. قال: لا،

فأصلح السراج، وعاد إلى مكانه، وقال: قمت، وأنا عمر بن عبدالعزيز، وجلست وأنا عمر بن عبدالعزيز.

قالوا لامرأته فاطمة بعد أن توفي: نسألك بالله، أن تصِفي عمر رضي الله عنه؟ قالت: والله ما كان ينام الليل، والله لقد اقتربت منه ليلة، فوجدته يبكي، وينتفض، كما ينتفض العصفور بلّله القطْر، قلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي! توليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيهم الضعيف المجهد، والفقير المنكوب، والمسكين الجائع، والأرملة، ثم لا أبكي، سوف يسألني الله يوم القيامة عنهم جميعًا، فكيف أُجيب؟

خاطرة: أعد لكل مسؤولية تتولاها إجابة.